الفصل الرابع

الثقافة الفارسية وأثرها على الحضارة العربية في العصر العباسي

كان التداخل كبيراً بين تاريخ العرب وتاريخ الفرس قبل الإسلام وبعده. فقد ارتبط العرب مع الفرس بعلاقات تجارية وسياسية، إضافة إلى روابط الجوار التي كانت تربط بينهم. وكان بين العرب من يعرف اللغة الفارسية، ومنهم من اطلع على بعض معارفهم في الطب والآداب وغيرهما. وعندما فتح العرب المسلمون بلاد فارس دخل الفرس في الإسلام أفواجاً، وأقبلوا على الإسلام يدرسونه، وعلى اللغة العربية يحصلونها. ولم يمض وقت طويل، حتى أخذوا يساهمون في الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم، وقد ساعد على ذلك أمران:

الأول: إنشاء منصب الوزارة، وإسناده غالباً إلى الفرس.

والثاني: انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وبعبارة أخرى من الشام إلى العراق.

أفادت الحضارة العربية الإسلامية من الثقافة الفارسية، وقد ظهر أثرها في الثقافة العربية في نواح عديدة أهمها:

1- في النظم الإدارية التي أقامها العرب في مختلف العصور، ولا سيما في العهد العباسي.

2- في المذاهب، حيث أن الفرس لم ينسوا معتقداتهم القومية، فحاول بعضهم أن يدخل عناصرها في الدين الإسلامي، وهناك من حاول التوفيق بينها وبين الإسلام. ومن أمثلة ذلك انتشار المانوية والزرادشتية والمزدكية وبخاصة في العصر العباسي.

3- في الآداب، حيث اعتمد الوزراء على الكتاب وكان أكثرهم من الفرس، وكان لهم أثر كبير في نشر الثقافة الفارسية في المجال الأدبي، فأضافوا الآداب الفارسية إلى الآداب العربية.. ودخلت ألفاظ فارسية إلى العربية، كأدوات الزينة، وآلات الغناء، وأنواع المآكل والملبس، كما نقل المثقفون الفرس إلى العربية تراث آبائهم في التنجيم والطب والجغرافية والهندسة، ولكن أكثر ما نقل في الأدب والأساطير والتاريخ، وقد أفرد ابن النديم فصلاً بأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية، ويأتي ابن المقفع على رأس هؤلاء، وكان للفرس أيضاً أثر في الشعر الديني، وفي حياة الزهد والتصوف.

الوزارة:

كانت كلمة وزير معروفة للعرب قبل الفتح الإسلامي، ففي القرآن الكريم على لسان موسى: «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي». وفي حديث السقيفة «نحن الأمراء وأنتم الوزراء» وفي طبقات «ابن سعد» أن أبا بكر كان وزيراً للنبي (ص).

ولكن الكلمة في كل المواضع التي ذكرنا، لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة وزير، وإنما هي بالمعنى المؤازر المناصر. قال ابن خلكان: «وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين: أحدهما أنها من الوزر وهو الحمل، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل، وهذا قول ابن قتيبة - والثاني أنها من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة، أو السلطان، ويلتجئ إلى رأيه. وهو قول أبي إسحاق الزجَّاج».

ونحن نرجح هذا - وهو أن أصل الكلمة عربي - على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من فيشيرا ره - vi chira ومعناه الأمر أو التقرير[1].

لم تكن كلمة وزير بدعاً في العصر العباسي، وإنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية، وتلقيبه بهذا الاسم، وهذا المنصب فارسي، ولم يكن معروفاً قبل العباسيين - قال ابن خلجان في ترجمة أبي سلمة الخلال: «إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول»[2].

ويقول الفخري: «الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون من بعده شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة... والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة، وسمي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً»[3].

وقد كان الوزراء الظاهرون في هذا العصر موالي فرساً، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في الشؤون كلها. فينظر في الشؤون الحربية، وفي الشؤون المالية، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة، ويوقع على ما يرفع إليه من أوراق. ولم

1- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج 1، دار الكاتب العربي، بيروت 1934 ص 164-165.
2- وفيات الأعيان، ج 1، ص 229.
3- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 165.

يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال، وإنما جمعوا له بين خطتي السيف والقلم.

وتاريخ الوزراء، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار، والأشعار والسير والجدل، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب. والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين بجمعة بين رياسة السيف ورياسة القلم... الخ.

وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس - غالباً - فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية. ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان، فقالوا: رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة.

وكان لهؤلاء الوزراء أعوان يسمون الكتَّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كتاب يعينونه. ولولاة الأقاليم، ورجال الدولة كتَّاب. وكانت هذه الطائفة - طائفة الكتَّاب - تؤلف وحدة على رأسها الوزير. وكان أكثر هؤلاء الكتَّاب فرساً كالوزراء، يحتذون حذو أجدادهم من الفرس - حتى في مظاهرهم الخارجية - بل إن تكون الكتَّاب كطبقة، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي، فالجهشياري يقول: «كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف بلبسته صناعته، والطبقة التي هو منها، فكان الكتَّاب في الحضر يلبسون لبستهم المعهودة... وكانت ملوك الفرس تسمى كتَّاب الرسائل تراجمة الملوك»[1].

كان لهؤلاء الكتَّاب أثر كبير في نشر نوع خاص من الثقافة، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة، لأنهم - بحكم مناصبهم - مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم، وأن يعرفوا من اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والجغرافية والتاريخ طرفاً، لأن كثيراً من مواقفهم يحتاج إلى ذلك، وقد تُعرض للخليفة أو الوالي مسائل من هذا القبيل، يضطر الكاتب إزاءها أن يكون ملماً بذلك كله. إذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم[2].

وأول ما نعرفه من ذلك: «أدب الكاتب لابن قتيبة»، فقد حمله على تأليفه كما ذكر في مقدمته: أنه رأى طائفة من الكتَّاب قد شغفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة.

1- الوزراء والكتاب للجهشياري، ص 401-402.

2- احمد أمين: ضحى الإسلام، ص 170.

وألف بعده أبو بكر الصولي كتابه «أدب الكتَّاب» فتكلم في حسن الحظ وقبحه، والدواة والقلم وما إليهما، وترتيب الكتاب وطيه، والدعاء في المكاتبات - والدواوين وتحويلها إلى العربية، ووجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال، وشيء من قواعد الإملاء.

وتوسع من جاء بعدهم - من المؤلفين للكتاب - حتى ختمت بكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» فتعرض فيه - تقريباً - لكل المعلومات البشرية في عصره، من تاريخ وجغرافية وفلك، وما يحتاج إليه الكاتب عملياً في صناعته من خط ونحوه، ومصطلح المكاتبات، وكيفية العقود، والبريد، ومطارات حمام الرسائل، والمنارات... الخ فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس، وكيف كانوا يطلبون منهم المعارف الواسعة في الموضوعات المختلفة، وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة.

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة، وضموا إلى الآداب العربية الآداب الفارسية، فأصبح ما يتطلبه الأدب، أن تعرف حكم بزرجمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفي، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين[1].

انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى العراق:

وهو السبب الثاني في نشر الثقافة الفارسية. وكان من أكبر بواعث العباسيين على هذا الانتقال، أن دمشق كانت عاصمة الأمويين، وكانت ضلع الشام مع بني أمية من عهد الخلاف بين علي ومعاوية، وكان الشاميون هم الجند المخلصون لبني أمية، وهم مثال الطاعة لدولهم، فمن حزم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم، وفوق ذلك، فدمشق بعيدة جداً عن خراسان، منبع الثورة، ومصدر الدعوة، وذخيرة العباسيين وعمادهم.

والذي يهمنا هنا أن بغداد كانت في العراق؛ حيث عواصم الممالك القديمة مثل بابل والمدائن. لهذا كله، أصبحت بغداد، بعد قليل، أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية، بل في العالم كله. ونحن إذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات، أمكننا أن نقول: إنها ظلت في رقي واتساع وعظمة إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

وكان لهذا الانتقال من الشام إلى العراق أثر كبير - من الناحية العقلية - فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة. وتداولت عليه دول خلفت فيه مدنيتها وثقافتها، وكان يسكنه قبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان وهم الذين

1- المرجع السابق، ص 172.

يلقبون بالآراميين، وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة، وكان يقيم فيه المناذرة الذين أسسوا مملكة الحيرة، وكانت مدينة الفرس غالبة عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس، وظل في أيديهم زمناً طويلاً، إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر، وكانت فيه «المدائن» عاصمة الساسانيين. كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطباغاً بالفارسية، فلما كان العباسيون، وكان الفرس هم الذين أعانوهم، كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة[1].

النواحي التي كان فيها للثقافة الفارسية أثر في الثقافة العربية:

أول ذلك الألفاظ اللغوية: ذلك أن العرب لما تحضروا بعد البداوة، وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة، ليس في ألفاظهم ما يدل عليها، وكان ذلك في جميع مرافق الحياة، من أدوات الزينة، وأنواع المأكل والملبس، وآلات الغناء، والدواوين ونظامها ونحو ذلك، فسلكوا خير طريق يُسلك لذلك. وهو أن يتوسعوا في مدلولات الكلمات العربية أحياناً، ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً، ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحياناً. وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التي تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها - من قديم تسربت ألفاظ فارسية إلى اللغة العربية، وكان ذلك بطريق التجارة أو الاختلاط. ولكنها بعد قليل، قيست بالألفاظ التي دخلت في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً بأسباب الحضارة في العصر العباسي، فكانوا أشد احتياجاً للاقتباس من الفرس، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكاً للعرب وحدهم، بل كانت ملكاً للعالم الإسلامي جميعه، والعالم الإسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصب العرب، فهو يفسح صدره للغات الأخرى ما دعا داع إليها. ثانياً - كان للفرس - من قديم - علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فلما جاءت الدولة العباسية، وكان كثير من رعيتها فرساً، لهم نزعة وطنية، وميول قومية، أخذ المثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم، وما حفظته العصور إلى عهدهم.

كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية، وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم. ولكن كانت مدينتهم في حياة وعظمة، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم. وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الإسكندر الأكبر لبلادهم، وقد تلف في هذه الحرب كثير من خزائن كتبهم. فلما جاءت الساسانية (226-652م) استعادوا أدبهم وعلمهم، وأظهر ملوكهم ميلاً إلى العلم، وتشجيع للترجمة وللتأليف: أردشير بابل (226-241م)، فقد بعث في طلب الكتب من الهند

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 174.

والـروم والصـين، وكـذلك كـان الشـأن فـي عهـد ابنـه سـابور، وعهـد كسـرى أنوشروان[1].

دامـت الدولـة الساسـانية نحـو أربعـة قـرون، خلفـت فيهـا علمـاً كثيـراً، وأدبـاً وفيـراً. وأكثـر مـا نقـل إلينـا فـي العصـر العباسـي - مـن الأدب والعلـم، والأسـاطير والتـاريخ - إنمـا يرجـع إلـى هـذه الأسـرة. فلمـا نشـطت الحركـة العلميـة فـي العصـر العباسي، أخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين - الفارسي والعربـي - ينقلـون الكتـب من الفارسية إلى العربية، وقد عقد ابن النديم في كتابة الفهرست فصـلاً لأسماء النقلـة من الفارسي إلى العربي، ذكر منهم:

(1) عبد الله ابن المقفع (2) آل نوبخت (3) موسى ويوسف ابنـي خالـد (4) أبـا الحسن علي بن زياد التميمي (5) الحسن بن سهل (6) البلاذري (7) جبلـة بـن سـالم (8) إسحق بن يزيد (9) محمد بن الجهم البرمكي (10) هشام بن القاسم (11) موسـى بن عيسى الكردي (12) زادويـه ابـن شـاهويه الأصـفهاني (13) محمـد بـن بهـرام بـن مطيار الأصفهاني (14) بهرام ابن مروان شاه (15) عمر بن الفرجان[2].

وقد ترجم عبد الله ابن المقفع «كتاب خداينامه» وهو كتاب فـي تـاريخ الفرس مـن أول نشـأتهم إلـى آخـر أيـامهم، وقـد سـماه ابـن المقفـع «تـاريخ ملـوك الفـرس». والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" عند كلامـه علـى الساسـانيين، وتـرجم كـذلك كتـاب «آيـين نامـه» ومعنـى الآيـين الـنظم والعـادات، والعرق والشرائع. وصف لنظم الفرس، وتقاليدهم وعرفهم. وقد ذكر المسعودي أنه كتـاب كبيـر، يقـع فـي آلاف مـن الصـفحات. كـذلك تـرجم ابـن المقفـع عـن الفارسـية «كليلة ودمنة» وكتاب «مزدك»، وهو يتضمن سيرة مزدك الزعيم الـديني الفارسـي المشهور، وكتاب «التاج» فـي سـيرة أنوشـروان، وكتـاب «الأدب الكبيـر» و«الأدب الصغير» وكتاب «اليتيمة»[3].

وقد ذكر المسعودي: أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتـاب «الكيكيين» مـن الفارسية الأولى إلى العربية - وهذا الكتاب تعظمـه الفرس لمـا قد تضـمنه مـن خبـر أسلافهم وسير ملوكهم[4].

وفـي الأدب، ترجمـوا أشـياء كثيـرة، منهـا مـا ذكرنـا قبـل مـن كليلـة ودمنـة، واليتيمـة، والأدب الكبيـر، والصـغير، ومنهـا كتـاب «هـزار أفسـانه» ومعنـاه ألـف خرافة، وهو أصل من أصـول «ألـف ليلـة وليلـة» وكثيـر غيـره مـن كتـب القصـص، ككتـاب بوسـفاس، وكتـاب خرافـة ونزهـة، وكتـاب الـدب والثعلـب، وكتـاب روزبـه اليتيم، وكتاب نمرود، الخ.

1- المرجع السابق، ص 175-176.
2- ابن النديم، الفهرست، ص 224 وما بعدها.
3- مروج الذهب للمسعودي، ج 1، ص 109.
4- نفس المرجع، ص 118.

كما ترجموا في الأدب عهد أردشير، وهو محفوظ بالعربية إلى عهدنا، وكتاب موبذ موبذان، وكتاب أردشير في التدبير، وتوقيعات كسرى. وكتاب أدب الحرب، الخ[1].

كان هناك كثير من الفرس ممن أتقنوا الفارسية والعربية معاً، وتثقفوا الثقافتين، وأنتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً كالفضل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن المقفع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري - أحد القصاص - كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري»[2].

بل نرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها، ثم يخرجون فيما بعد أدباً عربياً فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب. نذكر مثلاً على ذلك «العتابي» الشاعر العباسي المشهور. وهو عربي من تغلب اسمه كلثوم ابن عمرو بن أيوب، تثقف بالثقافة الفارسية، وأعجب بها. وكان أديباً ممتازاً، عزيز المعاني، وكان يقول: وهل المعاني إلا في كتب العجم، وبالبلاغة: اللغة لنا والمعاني لهم. ثم كان يتكلم بالفارسية كثيراً[3].

هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية، ملأوا الدنيا في هذا العصر العباسي علماً وحكمة وشعر ونثراً، فيها العنصر الفارسي واضح جلي. ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت على اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة، إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شعر الشاعر منهم عربي كبشار، وأدب الأديب منهم كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم عربي كابن قتيبة والطبري... الخ[4].

أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي:

وقد كان ذلك من جملة وجوه:

- أن الأدب - في كل عصر - ظلٌّ الحياة الاجتماعية. وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة، أظهر لون فيها كان اللون الفارسي.

1- أحمد أمين، ص 178-179.
2- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ص 139.
3- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 180.
4- المرجع نفسه، ص 181.

وبيان ذلك: أن العادات الفارسية تغلغلت في الناس في ذلك العصر، كان مظهرها واضحاً جلياً. فالناس يتخذون يوم النيروز عيداً لهم كالفرس قديماً، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، ومجالس الغناء واللهو والشراب هي مجالس الفرس. والفضل بن سهل وزير المأمون - وهو فارسي - يحتال حتى يقنع المأمون بتغيير السواد بالخضرة، ويكتب إلى جميع العمال أن يجعلوا أعلامهم وقلانسهم خضراً، والخضرة هي لباس كسرى والمجوس[1].

وقد اتبع نظام الحرب وإدارة الدولة، في أغلب الأحيان، نظام الفرس في حروبهم وإدارتهم، إلى كثير من أمثال ذلك. والفرس من قديم ميالون إلى الإفراط في الشراب، والإفراط في الغناء، حتى وصفهم هيرودوت بالإمعان في ذلك، والغلو فيه وتصريفهم شؤون الدولة وهم سكارى.

نعم إن الفرس هم الذين دفعوا الناس إلى حياة ترف ألفوها وآباؤهم عن عهد الأكاسرة، وعلموهم كيف يكون الإفراط في طلب الملذات منية أكسبتهم إياها حضارتهم القديمة - لا من طريق ساذج كالذي يعرفه العرب - هل كان يعرف العرب مجالس الغناء المتقنة، ومجالس الشراب المترفة، وحياة النعيم الناعمة لولا الفرس؟ فعظماء الفرس كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها، وفنانوهم كإبراهيم الموصلي غنوها لهم، وشعراؤهم كبشار بن برد كانوا لسانهم الناطق بها، المحدث عنها! ولو كانت الحياة الأموية امتدت وظلت السيادة العربية ما رأيت تشبيباً بغلمان، ولا هذا السيل الجارف من القيان، ولما رأيت نعيماً وترفاً وفيراً! ألم ترَ الشام ومصر والأندلس في هذا العصر نفسه - لم تنغمس في الترف كما انغمست العراق وفارس، ولم يكن أدبها أدباً ناعماً كالذي كان في العراق. قد تكون كثرة المال التي تصب في حاضرة الخلافة سبباً للترف في الحياة، والترف في الأدب. ولكن المال وحده لا يكفي لولا العنصر الفارسي الذي كان ينظم كيف يستخدم المال في هذا السبيل[2].

من الحق أن نقول: إن هذه النزعة إلى اللهو والترف لم تكن نزعة عامة شاملة للفرس، بل كان هناك نزعات أخرى بجانبها، أظهرها ما كان يقابله من نزعة الزهد. وكان زعيم هذه النزعة في الأدب أبا العتاهية الفارسي أيضاً.

إن أبا العتاهية قد فلسف الزهد، وملأ الأدب العربي - في عصره - بالموت والتخويف منه ومما بعده، واحتقار اللذة، والجهد في الهرب منها.

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب غير هذا الذي ذكرنا، فقد كانت كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية إلى العربية، كـ "كليلة ودمنة" و"هزار إفسانه" أساساً من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربي. فابن النديم يروي أن محمداً بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء «ابتدأ

1- الوزراء والكتاب للجهشياري، ص 396 وما بعدها.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 184-185.

بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم المسامرين، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في السمار والخرافات ما يحلا بنفسه، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سحر تام يحتوي على خمسين ورقة، وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه تتميمه ألف سمر»[1].

وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير، وهو باب «التوقيعات»، ذلك أن الفرس - قبل الإسلام - كانوا يعنون بالبلاغة عناية كبرى، وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ، وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم والتوقيعات. كان الفرس - ككل الشعوب - يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقاً تتضمن طلباً لشيء أو شكوى من شيء، نسميها نحن الآن «عرائض»، وكانت تسمى عند العرب «قصصاً» سميت كذلك على سبيل المجاز، لأن القصة اسم للمحكي في الورقة، فسميت الورقة نفسها «قصة» وكانت تسمى كذلك رقاعاً، لصغر حجمها تشبيهاً لها برقعة الثوب.

كانت هذه القصة ترفع إلى الملك، أو من يليه تبعاً لموضوعها، وتبعاً للمتظلم وقدره. وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بليغة، أو حكمة حكيمة. يتخيرون لها أحسن اللفظ، وأجود المعنى. وتتناقل أثراً من الآثار القيمة، كما يتناقل المثل الجيد. وقد نقل إلى أدبنا العربي الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس، من ذلك، أن رجلاً رفع إلى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان، فوقع في أسفل كتابه، إنما أملك ظاهر الأجسام لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر!

ووقع أنوشروان في قصة محبوس: من ركب ما نهى عنه حيل ما بينه وبين ما يشتهي. ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح أطنب فيه وأسهب، وذهب كل مذهب، وكان المدح في رقعة فوقع فيها كسرى «إني للمدح مستصغر، لعلمي بأشياء قد مدحت، وكانت بأن تذم محقوقة». الخ. الخ.

ولما تحضر العرب، وانتشرت بينهم الكتابة، وحرروا مظالمهم على رقاع - بعد أن كانوا يشافهون بها أمراءهم - كان لهم توقيع. وقد نقلت توقيعات في أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية، أخشى أن يكون كثير منها شفهياً فحور إلى توقيع. ولكن قد سال سيل التوقيعات في عهد بني العباس، وكان أكثر الكتاب والوزراء فرساً، فساروا فيها على سنن آبائهم. وكثر ذلك حتى أنشأوا فيما بعد ديواناً أسموه «ديوان التوقيع»[2].

1- ابن النديم، الفهرست، ص 304.

2- أحمد أمين، المرجع السابق، 188.

هذا إلى أنه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير، فتحت أعين العرب.

وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة العربية، ذلك ما تنبه إليه ابن خلدون من «أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته»[1].

ويعلل ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات، والصناعات من خصائص الحضر، والعرب كانوا بدواً فكانت العلوم من نتاج الحضر. والحضر في ذلك العهد من العجم، ومن في معناهم من الموالي. ويقول: «فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي من بعده، والزجَّاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم، أو مستعجمون باللغة والمربى، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس»[2].

ونحن نعتقد أن ابن خلدون - مع دقة ملاحظته - قد عانى فيها غلواً كبيراً وبخس العرب نصيبهم في المشاركة. فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً فمالك والشافعي وأحمد بن حنبل عرب، ولئن كان سيبويه فارسياً فشيخه الخليل بن أحمد عربي. وليس كل علماء أصول الفقه عجماً كما يقول، فواضعه وأول مؤلف فيه الشافعي وهو عربي، وغلو أن يدعى أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم بالمربى، فإن المربى كان مزيجاً من عرب وعجم[3].

ولكن مما لا شك فيه أن العجم - وخاصة الفرس - كانوا في جملتهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون، وهو تعمقهم في الحضارة، ولأنهم مرنوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآباؤهم، فلما دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية، كان تأليفهم بالعربية سهلاً يسيراً، لأنه ليس إلا احتذاء للمنهج، وإن اختلف الموضوع واللغة.

إذاً، لا عجب من أن نرى في عصرنا الذي نؤرخه كثيراً من الفرس، كانوا من السابقين الأولين في تدوين العلوم المختلفة.

والآن نستطيع أن نختار رجلاً يمثل الثقافة الفارسية خير تمثيل وليكن «ابن المقفع».

1- ابن خلدون، المقدمة، ص 477.
2- المرجع السابق، ص 487.
3- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 191.

ابن المقفع

ابن المقفع فارسي الأصل، كان أبوه من قرية اسمها «جور»، من أقاليم فارس. نشأ ابن المقفع في البصرة في «ولاء آل الأهتم» وهم معروفون بالفصاحة واللسن، وخالط الأعراب وأخذ عنهم. وكان أبوه يدين بمذهب زرادشت، وهو نشأ - كأبيه - زرادشتياً وتقلد الكتابة لكثيرين، فكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة، وكان يزيد والياً على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هبيرة، ثم اتصل بعيسى بن علي عبد الله بن عباس عمّ السفاح والمنصور.

وكان إلى هذا العهد - لا يزال مجوسياً، فأسلم على يديه وكتب له، ثم قتل لتشدده - على ما يقول كثير من المؤرخين - في كتابة صيغة الأمان التي وضعها ابن المقفع ليوقع عليها أبو جعفر المنصور أماناً لعبد الله بن علي، فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا يجد المنصور فيها منفذاً فيها للإخلال بعهده، فغاظ المنصور ذلك فأوعز بقتله. وكان قتله سنة 142هـ أو 143 أو 145 على خلاف في ذلك.

نستطيع أن نستنتج من هذا نتيجتين هامتين:

الأولى: أنه لم يقض من حياته في العصر العباسي إلا نحو عشر سنوات، أما البقية فقد قضاها في العصر الأموي، وشهد اضطهاد العرب للموالي، وشاركهم في محنتهم وبؤسهم - أيام الأمويين.

الثانية: أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً، وقضى زهرة شبابه في أحضان المجوسية، مثقفاً بثقافتها، ولم يُسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات، بعد أن تكوَّن ونضج، وتقلد الكتابة للكثيرين.

وابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي، قوي في خلقه، قوي في عقله وسعة علمه، قوي في لسانه[1].

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 196-197.

آثاره الأدبية:

ذكرنا فيما سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية، وما نقله منها ابن المقفع. والآن نذكر آثاره الباقية في أيدينا، وهي: 1- الأدب الصغير، 2- الأدب الكبير أو اليتيمة، 3- رسالة الصحابة، 4- كليلة ودمنة.

الأدب الصغير والأدب الكبير:

هما كتابان يدلان على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً، كما نفهم من معنى الترجمة، وإن كان اعتمد في كثير من المعاني على معاني الأقدمين. قال في الأدب الصغير: «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها، وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق». وقال في الأدب الكبير المسمى بالدرة اليتيمة: «إنا لم نجدهم - أي الأولين - غادروا شيئاً، إلا في تعظيم الله عز وجل، وترغيب فيما عنده. ولا في تصغير للدنيا، وتزهيد فيها. ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزائها، وتوضيح سبلها، وتبيين مآخذها. ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق. فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم. ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

وكلمة الأدب في الكتابين ليس معناها ما نستعمله الآن فيما يقابل العلم، وإنما يطلقها ابن المقفع على معنى تهذيب النفس والخلق.

والأدب الصغير - عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق، لا تحلل النفس والخلق تحليلاً دقيقاً واسعاً مستوفى، ولا تذكر الخلق فتبسط القول فيه، وتذكر وصفه، والسبيل إلى اكتسابه، فذلك بالعقل اليوناني أشبه، ولكنها عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال. وهي خطرات، نتيجة تجارب قد صنعت في إيجاز، وفي عبارة رشيقة رقيقة. مثل: «أربعة أشياء لا يستقل منها القليل: النار والمرض والعدو والدين».

ومثل «لا تعد الغنم غنماً إذا ساق غرماً، ولا الغرم إذا ساق غنماً، ولا تعتد من الحياة ما كان في فراق الأحبة» الخ.

ونلاحظ في الأدب الصغير- في كثير من مواضعه - أنه لا ارتباط بين حكمه، فهي أشبه برجل أخذ يرصد تجارب مختلفة في حالات مختلفة، وقد عثر على تجربة وضعها، وإن كانت إحدى التجارب اقتصادية، والأخرى دينية، والثالثة نفسية. أو كرجل يقرأ في كتب مختلفة، فكلما وجد كلمة أعجبته دوَّنها، لذلك ترى كلمة في محاسبة النفس، وبجانبها كلمة في الصديق، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طبقاتهم، ثم في اختلاف الرأي والهوى، ثم بعد كثير من الصفحات تجد كلمة أخرى في الصديق، قد كان يحسن أن تكون بجانب الأولى، وهكذا. ثم هو

مختلف في طريقة التأليف، فأحياناً ينشئ الشيء من غير إسناد، وأحياناً يقول: وقالت الحكماء، وأحياناً تجد قبل الحكمة كلمة «وقال»، ما يدل على أنه لم يضعها هو في هذا الموضع[1].

أما الأدب الكبير - أو ما سماه بالدرة اليتيمة، فكلمات كذلك، ولكنها في مجموعها أطول، وهي مرتبة غالباً، ألفت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد تقريباً، يدور أغلبها حول موضوعين قد استوفى الكلام فيهما استيفاء حسناً، فأولهما: الكلام على السلطان والولاة، ومن يتصل بهما. وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً، يتجلى ذلك في أكثر ما كتب، لأن حياته كانت متصلة به، فقد كتب للولاة، واتصل بهم، وصادقهم وعاداهم. وقد اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه وكان ركناً من أركان هذا الخلاف ومحرراً لوقائعه، ومستشاراً في أمره، ومنغمساً فيه، وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير الفرس، ومترجماً لها. فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه، ولا عجب إذا أجاد، وقد جمع فيه مأثور الأولين، وتجارب الآخرين، إلى ما منحه الله من دقة نظر، وحسن أداء. وقد استغرق هذا الموضوع القسم الأول من الكتاب. والموضوع الثاني: الصداقة والصديق. وقد كان ابن المقفع يقدر هذا تقديراً دقيقاً، ويرى في الأصدقاء عماد الحياة، ومرآة النفس، يفضي إليهم وحدهم ببنات صدره، ودخائل نفسه، ويضع عندهم وحدهم مكنونات سره، ويضع عنه مؤونة الحذر والتحفظ. أما غيرهم فليس لهم لباس آخر، لا يلقاهم إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً. ولأجل ذلك أثقل في شروط الصديق، ونصح بالدقة التامة في اختياره «لأن ذا الرأي لا يدخل أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسبر، والثقة بصدق النصيحة، ووفاء العقل». وتدل سيرته على أنه آمن بما كتب، ودان به، وسار في حياته على ما كتب من قوانين الصداقة.

في الكتابين أثر كبير من الثقافة الفارسية، ففيهما حِكَم كثيرة من حِكَم الفرس، وفيهما بعض نظم الساسانيين في الحكم، وكثيراً ما يقول: «احفظ قول الحكيم» و«قالت الحكماء» وهو يقصد حكماء الفرس. وفيها بعض وصايا مأخوذة من عهد أردشير، كالنظام المتعلق بولي العهد. وفيها من حكم كليلة ودمنة، إلى غير ذلك. نعم هناك أثر يوناني في هذه الحكم مثل قوله: «إن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يحب، وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره، أطوله وأدومه وأبقاه، فإذا هو قد أبصر، فضل الآخرة على الدنيا، وفضل سرور المروءة على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع العام - الذي تصلح به الأنفس والأعقاب - على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل، وفضل الأكلات على الأكلة، والساعات على الساعة». إنك تلمح في ثنايا هذا رأي أبيقور، وهو أنه يحب أن يراعي - في تفضيل لذة على لذة - الشدة والمدة، وتفضيل اللذائذ العقلية والروحية على اللذائذ البدنية، الخ. ولكن ابن المقفع إنما نقل عن الفرس،

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 200-201

وإن كانوا قد تأثروا - فيما تاثروا به - بالمذاهب اليونانية. كذلك نلمح في بعض حكمه أشياء إسلامية كقوله: «والدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك» فهو قريب في لفظه من حديث مشهور، ونرى وجوه شبه عديدة في بعض الحكم بين ما ورد في كتب ابن المقفع، وما ورد عن الإمام علي في كتاب نهج البلاغة. ولكنا يعترينا الشك في كثير مما نسب في نهج البلاغة إلى الإمام علي.

استمد ابن المقفع غالبية ما في كتبه من الثقافة الفارسية، وقليلاً منها من الثقافة العربية الإسلامية[1].

رسالة الصحابة:

ولابن المقفع رسالة سميت بالصحابة، وليس يعني صحابة رسول الله - كما هو المشهور في استعمال الكلمة - وإنما عنى صحابة الولاة والخلفاء، وهم من يقربهم الأمراء أو الخلفاء وينادمونهم، ويجعلونهم موضع السر منهم، ويستشيرونهم في أمورهم. وقد عرض في هذه الرسالة لهذا الموضوع، فسميت الرسالة به.

وللرسالة قيمة كبرى، فهي تقرير في نقد نظام الحكم إذ ذاك ووجوه إصلاحه، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمه، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور، لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت، ويذكر أمير المؤمنين، وقد أهلك الله عدوه وشفى غليله، ومكن له في الأرض، وآتاه خزائنها. ويذكر أبا العباس (السفاح) ويترجم عليه. وإذا علمنا أن ابن المقفع قتل في عهد المنصور، صح لنا أن نستنتج - من ذلك كله - أن الرسالة إنما كتبت للمنصور. بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع إلى ما عنده من علم الرغبة في السؤال، والاستماع لنصيحة الناصح، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدلي برأيه. ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يتولى أبو جعفر المنصور، فوالٍ لا يهتم بالإصحاح، وإن اهتم فليس له رأي يهديه، أوله رأي ولكن ليس له عزم يمضي به ما يبتغيه، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان، ولهم من المكانة والنفوذ ما يمنع الخليفة من إقصائهم والنيل منهم، وأمة إن أخذت بالشدة حميت، وإن أخذت باللين طغت، وأبان أن أمير المؤمنين وفقه الله لمداواة هذه العيوب، واقتلاع هذه الشرور، ثم بدأ بتقريره الذي وضعه.

فأول ما بدأ به: شرح حال الجند. وإذا علمنا أن الدولة في عهد هذا التقرير دولة ناشئة، ولها أعداء كثيرون، وذوو أطماع عديدون، ثم هي واسعة الأطراف، مترامية الأنحاء لا يخلو فيها يوم من فتنة، أدركنا ما للجند من عظيم شأن، وعرفنا السبب في أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع. وكان عماد

1- نفس المرجع، ص 204.

الجند هم الجند الخراسانية، وكانوا هم القائمين بحماية الدولة، وكانوا فرساً، وكان ابن المقفع فارسياً، وكان محور كلامه الجند الخراسانية.

ثانياً: مما نصح به أمير المؤمنين في شأن الجند، أن يحول بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية. وقد علل ابن المقفع رأيه هذا بأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. وهو نظر صائب، لأن كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسلطانهم وجنودهم، فظلموا الناس. ولما أخذوا على ظلمهم اعتزوا بما في أيديهم من مال، وما تحت طاعتهم من جند، فخرجوا على الدولة، وكانوا سبباً لمصائب لا تحصى[1].

ثالثاً: مراعاة الكفاية في القيادة، فقد لفت نظر الخليفة - في لطف - إلى أن يعيد النظر في الرؤساء ومرؤوسيهم، فكثير من المرؤوسين أكفأ من رؤسائهم، فلو ولى القيادة خيارهم، ووضع الجند في منازلهم، حسب كفايتهم، لكان من ذلك خير عظيم.

رابعاً: تثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية، فيعنى بتعليمهم الكتابة والتفقه في الدين، كما يعنى بتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع، واجتناب الترف في الزي والعطر واللباس، وما إلى ذلك.

خامساً: تعيين وقت محدد للجند يقبضون فيه أرزاقهم، فإن ذلك أدعى إلى طمأنينتهم، وأمنع للشكوى والاستبطاء.

سادساً: أن يتقصى أخبارهم وحالاتهم الخ...

ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل العراق عامة، وأهل البصرة والكوفة خاصة وأنهم أقرب الناس إلى يكونوا شيعته ومعينيه.

ثم عرض ابن المقفع في تقريره إلى موضوع من أهم الموضوعات وأعمقها في حياة المسلمين، وهو فوضى القضاء[2].

بعد ذلك انتقل إلى تعطيف المنصور على أهل الشام، وقد كان العباسيون ينظرون إليهم نظرة عداء، لأنهم كانوا أنصار الأمويين وجندهم المطيعين. بعد هذا تكلم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن «بحاشيته» ورجال دولته المقربين إليه. ذلك أن الخليفة كان يقرب إليه أوغاد الناس وسفلتهم. وأن هؤلاء كانوا - قبل خلافة أمير المؤمنين - عملوا أعمالاً مفرطة القبح، مفسدة للحسب والنسب والسياسة، داعية للأشرار طاردة للأخيار.

انتقل بعد هذا إلى الكلام في الخراج، وهو عماد مالية الدولة، والخراج هو المال المفروض على الأراضي، وقد شكا من الفوضى فيه كما شكا قبل من فوضى القضاء.

1- المرجع السابق، ص 205-207.

2- نفس المرجع، ص 208-209.

ثم انتقل ابن المقفع إلى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها، وقد كانت موضع نقمة المنصور إذ خرجت عليه، فطلب إليه أن يعنى بها عناية خاصة، فيتخير لولايتها الخيار من أهل بيته، ذلك أنها منبع النبوة، ومصدر الإسلام، وقبلة المسلمين، وقد تولاها ولاة سوء انتهكوا حرمتها، فكانت حاجتها إلى خير الولاة أمس وأوجب.

وختم ابن المقفع تقريره ببيان ما للخليفة من أثر عظيم إذا صلح.. الخ...

كليلة ودمنة:

يقول ابن المقفع إنه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية، وقد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل HERTEL على بعض الأصول الهندية الأولى، كتبت باللغة السنسكريتية القديمة، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة. فعثروا في كتاب على باب «الأسد والثور» و«الحمامة المطوقة» و«البوم والغربان» و«الناسك وابن عرس»، و«الأسد وابن أوى»، كما عثروا في كتاب ثالث على باب «ملك الفيران» وعلى أبواب أخرى.. فجميع هذه القصص هندية الأصل. ولكنهم لم يعثروا إلى الآن على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى «كليلة ودمنة»، أو أي اسم آخر.

وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته ما عهدناه فيه من ميل إلى الإصلاح الاجتماعي، شاهدناه في الأدب الكبير والصغير، ورسالة الصحابة. وكتاب كليلة ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً، فهو يتعرض للنصح بعدم الإصغاء إلى الحاسد النمام، ويبين أن هناك جزاءً طبيعياً، فعاقبة الخير خير، وعاقبة الشر شر. وينصح بأخذ الحذر من العدو، والاعتماد على الصداقة، الخ.

ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية دفعه إلى استنكار كثير من الأمور، ورأى أن معظمها يرجع إلى حكام عصره، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً. وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكره في زمن أبي جعفر المنصور، وهو شديد البطش، سريع إلى أعمال السيف. وكان (أبو جعفر المنصور) مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها، وكان يرى أنه لا يمكن تثبيت قواعدها إلا بإخماد كل حركة تضعف من شأن الدولة، أو يتوهم فيها ذلك، ويقطع رأس كل مخالف. وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنة، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة أو نحو ذلك، وكان ابن المقفع ذاته أحد هؤلاء الضحايا[1].

لعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه المنصور بأكثر مما واجهه به في رسالة الصحابة، وقد مزج نقده بين مدح الخليفة والثناء عليه، ونسب أكثر الشدة التي

1- نفس المرجع، ص 217-218.

يراها إلى غيره. ولكن هذا لم يشف غلته، فرأى أن أسلم طريقة أن يترجم هذا الكتاب ويزيد فيه ليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية، ما فعله كليلة ودمنة في الهند وفارس، ولعل هذا هو الغرض الذي أخفاه في مقدمة الكتاب ولم يصرح به.

يمكن تلخيص عرض ابن المقفع من ترجمة هذا الكتاب، في أنه النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل، وحتى يطالبوا بتحقيق العدل. ولم يوضحه ابن المقفع، لأن في لإيضاحه خطراً عليه من المنصور. ولعل هذه النزعة فيه كانت من الأسباب في الإيعاز بقتله[1].

وتدل المقارنة بين ما عثر عليه من الفصول الهندية، والترجمة السريانية القديمة، التي ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة نحو سنة 570م، والتي وجدت في دير في ماردين ونشرت عام 1876م، على أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية بل حور كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبه، حتى يتفق والذوق العربي الإسلامي، وذوق المتأدبين في عصره. بل أضاف فصولاً من عنده أيضاً.

وقد كان لكتاب كليلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي، وفي غيره من الآداب. وعني الناس به عناية كبرى وحذوا حذوه. وعلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربي القصص على ألسنة الحيوانات - نعم كان للعرب قبله شيء من ذلك كالذي ورد من أمثالهم، أن الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا إلى الضب، فقالت الأرنب يا أبا الحصين! قال سميعاً دعوت، قالت أتيناك لنختصم إليك، قال عادلاً حكيماً. قالت اخرج إلينا، قال في بيته يؤتى الحكم. قالت إني وجدت تمرة، قال حلوة فكليها. قالت فاختلسها مني الثعلب، قال لنفسه بغى الخير. قالت فلطمته، قال بحقك أخذت.. قالت فلطمني، قال حر انتصر. قالت فاقض بيننا، قال قد قضيت! وورد في القرآن الكريم: «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم» وقال في الهدهد «فقال أحطت بما لم تحط به» ولكن كان لكتاب كليلة، أثر من ناحية تفصيل القصص على ألسنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً، ووضع الحكم والأمثال والعظة على ألسنتها، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد. يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم، ولا واعظ أن يومئ بالموعظة الحسنة إليهم. فغشا هذا الضرب من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل. وكأنهم يقولون: إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى الإنسان بذلك! وإذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالإثم، ويستعظمون أن يصرح لهم بنصح أو نقد، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم! وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر[2].

1- نفس المرجع، ص 219.

2- نفس المرجع، ص 220-221.